اكتمل ذبيحا

محمد عفيفي مطر

كِسَفُ الظلمة والعصفِ كتابٌ من دم الشاهد
إذْ تَسْفي به الريحُ وتعلو في سماء القول
والصرخةِ قبل الأبجديَّات،
وتذرو شجرَ الأقلام بين الأبحر السبعة من
حبر الظلامْ

هكذا مُرْتَجَعُ الطين إلى مقْدوره قبل الكلامْ
هكذا مرتجعُ الحرف إلى ظلمته الأولى
فلا الشاهدُ يُسْتبْقَىٰ ولا يَبْقَى شهيدٌ،
كان ما كان احتمالاً، لم يكن إلاَّ ظلامٌ صبْوةً،
كانت بغايا القول في الأسواق،
فاسْتبْدِلْ قراءاتِكَ في ذاكرة المحْوِ،
استمعْ - يا أيّها الراوي - إلى
زلزلة الرَّجْعِ وتأويلِ الكلامْ:

- ١ -

وقف الشاهدُ في أُبَّهة السوقِ وحيداً،
كان طفلاً فرَّ من قافلة البدو التي تضرب في
ذاكرة الرمل المقفَّىٰ وانْبجاس الدم والثأر وفوضى
الرَّجَزِ الهائِمِ في هَيْمَنَةِ اللهجة والخوف،
وحيداً كان في أُبَّهة الختْلِ وطقس الحَلِفِ الكاذبِ ما بين
خئونٍ يعرض الصيدَ ولصٍّ يَشتريَ بالرعب،
شحّاذون في الساحة، أضواءُ دمٍ من سالِفِ القتلِ،
سبايا، جوهرٌ من أعين الموتى، عظامٌ بَليَتْ في
قبضة النحّاس، هَرْجٌ، ودخانٌ قَسْطلانيٌّ على
صفحته يشتبك البرقُ وتهوي كسفُ الظلمة
والعصفِ، ومدّاحون يَحْثُونَ على وَقْع الدفوفْ
حاصباً من مَرْثياتِ المدنِ المخلوعةِ الأبوابِ والمرمرِ،
طيرٌ من شظايا الجمر والفولاذ يَهْوِي من تعاشيق
السقوفْ
ينزوي الشاهدُ ما بين فتوق الرجز المضْغَةِ (هل مُسْتَفْعِلُنْ
كامنةٌ بين قَليبِ الروح والآفاق أم يكمنُ
في مستفعلن ماءُ السلالات ومجدُ الفتح -
والوقتُ فضاءٌ دامسٌ بين جحيمين:
رفاتِ الأهلِ - صيدِ الغرباءْ
للقَطا والنّوقِ والآرامِ!!)
قَلِّبْ أيها الشاهدُ عينيكَ:
بهذا الصيدِ مَنْ قايَضَ مَنْ!!
لا ذهبُ التجار أو قَيْءُ المرابين ولا
سحرُ الأرقّاءِ بفيض الخرز اللامع يكفي ثمناً
يَعْدِلُ تسبيحَ القطا..
للخيل والطير وللنوق مَرَاحٌ واسعٌ في سجع كهانكَ
أو في الرجز البازغ والنَّفْثِ الهَيُولِيِّ بترجيع الحُداءْ
أنتَ في ظلمةِ غَمْرٍ مُستعادٍ، فابتدئ، قد أزِفَ الشعرُ،
وأَرْجِعْ بصرَ الحيرةِ ما بين الجحيمين،
وأطْلقْ فزعَ الصرخة من وشْمِ بلادٍ ورمادْ
يَتَّبِعْكَ الصيدُ من طيرٍ ووحشٍ وقوافٍ،
هَيِّجِ المعْجَمَ وارصُدْ وترصَّدْ مُرْسَلَ الغيمةِ
والقطرِ،

دَياميمُ العراءْ

جسدٌ منكتمُ الصبْوة، قاعٌ حَفَّه من غُلْمةِ الخَلْقِ أراكْ
وغضاً يلْتَفُّ بالأعشاب والسِّدْرِ، غَرودٌ ناهدٌ،
أنصابُ صخرٍ ونتوءاتُ دمٍ من حجر الشهوة،
هذا شبقُ الكون تعرَّى، فاحْدُ قطعانَ اشْتهاءاتِكَ
واخرجْ من فتوق الرجز الغُفْلِ،
وخذْ من إرْثِكَ الدائرِ فَتْلَ الليفِ واعقُدْ
من حبالاتك أشْراكَ الغواياتِ وثَبِّتْ وتدَ
الخيمةِ، وافتحْ للصَّباباتَ النشيدْ

واستمعْ:

أيُّكما الشاهدُ، من كان الشهيدْ!!
هل تُرى كنتَ وحيداً أم دمُ الأسلاف معقودٌ على
نطْفته في عُقدة الليفِ
وهل كان الغناءْ
أمّـةً سيقتْ أمـام العصف حتَّى احْتشَـدَتْ في صرخـةِ
المشْهَدِ؟!
أمْ أنتَ احْتمالاتُكَ:
موقوتٌ وبَدْءٌ خالدُ الرهبةِ!!
أمْ أنتَ اكْتمالاتُكَ:
في الرَّمل وجودُ الرَّمل..
صِرْفٌ من صريح الفقر لا يُشرى ولا يُبْتاعُ،
سافٍ.. ليس تستعبدُه في بَدَدِ الريح يدُ الرغبةِ،
دَوَّامٌ عَصُوفٌ.. حُرَّةٌ حبَّاتُه بين المداراتِ،
جميعٌ مكتفٍ، فردٌ ذَرُورِيٌّ، قديمٌ قدمَ الدهرِ،
ومن أحواله ينْجدلُ الفَجرُ الجديدُ!!
فابتعدْ ـ لا هرباً في كذِبِ الظنِّ ـ
انْقَطِعْ.. أضْعَفَ مَا كنتَ وأَضْوَىٰ بدْؤُكَ
المكتملُ الخطوةِ واللَّهجةِ،
أقوى ما يكونُ القتلُ والقاتلُ عَوْدٌ أبديٌّ
لاشتهاء الأرض ـ ما بين المحيطين
وبحرِ الرومِ ـ للمذبحةِ البِكْرِ،
وقَلِّبْ ـ أيُّها الشاهدُ ـ عينيكَ، وزَحْزِحْ لغةَ الرَّملِ
وثَبِّتْ وتدَ الخيمة في رمل الكلامْ..

ـ ٢ ـ

كَفَّ ظِلٍّ كانت النخلةُ،
مَوْماةُ سرابٍ في ابْيضاضِ الشمسِ،
رَحْلٌ، ورحًى تَشْتَفُّ وحْشَ الظمأ المنقضِّ بالطير،
جرادٌ من شظايا الذهب الشفّافِ،
هاأنتَ، وهذا حُلُمٌ يَسْتَرْجِعُ الموتى
أم الموتى حصًى من حسرة الظنِّ وحشدٌ سيقومْ؟!
كيف ـ والأهلُ غبارٌ لم يكنْ ـ لَمْلَمْتَ من
شاهدة المقبرة الكبرى خطوطَ المرمرِ المغسولِ
بالدمعِ
وأسماءَ نجوعٍ وقرىً؟!
أم أنتَ في ساحة غيبٍ ذاهلٍ بالقيظِ تستقبل تجّارَ
الأقاليم:
قَباطيٌّ، حريرُ المَوْصِل، التفّاحُ والفلفلُ، أجناسُ
جوارٍ،
مِيزةٌ من كل زوجين، سلاحٌ مرهفٌ،
فيضُ كتاباتٍ على الكاغِدِ والرَّقِّ..
مقامُ الظلِّ في الخيمةِ هذا أم غواياتُ النجومْ
بَرِقَتْ في خطْفةِ الحلم بما كانَ
أم الخيمةُ ميثاقُ دمٍ محتشدِ الصبوةِ
منذورٍ لما سوف يدومْ؟!

ـ ٣ ـ

كائِنٌ هذا الذي تنظرُ؟! أم هذا الذي تُبْصِرُ في النَّار،

وماءٌ من يقينِ اللَّمس هذي المجمرهْ؟!
وترابٌ قائمٌ منتظِرٌ في زعْفرانِ السَحَرَهْ
أم هبوبُ الريحِ في طلْعِ الكتاباتِ؟!
أهذا كائنٌ!!
فانظرْ - إذنْ - وامسحْ بِشِقِّ الليل وجهَ
الفجر، أشعلْ في رمادِ الأنْجُمِ المتكدِّرَهْ
شمسَ قطعانِكَ - هلْ غادرتَ من مُتَرَدَّمِ الأهوالِ؟! -
واخرجْ للندى والعشب،
أضيافُك في ضَحْوَةِ هذا الصبحِ يأتونَ،
ومنذورٌ لسانُ السَّطْوةِ الفُصحى لتُملي خطبةَ العيدِ
فهَيِّئْ من ثَريدِ الضأنِ وامْزُجْ لبنَ النَّاقةِ بالتمرِ المصَفَّى،
وامْلأ الرَّكْوَةَ بالجمر، اتّكئْ، وانظرْ،
أهذا كائنٌ!!
فافْرِشْ - إذنْ - أبسطةَ الرمل
وقَسِّمْ ظِلَّ بيتِ الشَّعْرِ ساحاتٍ:
هنا يصطفُّ كهّانٌ وعرّافون،
في ميمنةِ الظلِّ النبيّون وفي ميسرة الحشدِ مقامُ الشهداءْ
ثَمَّ يصطفُّ ملوكُ الأرضِ مذْ كانت ومن خلفهمُ
الحرَّاسُ والحاشيةُ - الحُجّابُ - أخلاطُ قيانٍ ومغنِّين -
العبيدُ الشعراءْ
خلفكَ الأهلون من أسلافك الموتى نسيجٌ في فضاءِ الشجرهْ
أغصنٌ في كتب النَّسَّابَةِ امْتَدَّتْ شِباكاً
لاصطياد الغيب والأفلاكِ،
قُدَّامَكَ أسلابُ ذوي الشوْكةِ والسِّكَّةِ مُذْ
سالَ دمٌ فوق أديمِ الأرضِ، قُوَّادٌ،
غَطَاريفُ قلاعٍ ورباطاتٍ، سلاحٌ ليس يُحْصىٰ،
مَدَدٌ من ساقةٍ..
هل كائنٌ هذا!!

فقُمْ في ملأِ الحشْدِ - إذنْ - وابدأْ بلاغَ الرَّملِ من
قلبك، أضيافُك يلتفُّون في ضَحْوَةِ هذا اليوم أسماعاً
وأبصاراً، لهم ممَّا اشْتَهتْ أنفُسُهم - بعدَ جلالِ الموتِ -
هذي الأوجهُ الروَّاغةُ المُنبهرهْ
فابتدئ بالقهوةِ المرَّةِ والصَّبْرِ الجميلْ
وليكنْ إشراقُ عينيك مديحاً رائق النَّبْرَة للأرضِ
التي كانتْ وللموتِ الذي كان
وللخيمةِ والقَفْرِ الجليلْ..

- ٤ -

هاأنا.. لا درْعَ لي إلَّا الوليمهْ
ليس من مُلْكٍ سوى ما خَلَّفَ الرحَّالةُ الماضون من
آثارِ خيلٍ وقِصاعٍ وثريدٍ حَجَّرَتْه الريحُ،
ما من وجهةٍ - بعدُ - فقد جئتمْ ضيوفاً
والهدايا مُنْجَزُ الماضي الذي ولَّىٰ
وما من خطوةٍ إلَّا الإقامهْ
بينكمْ..
أسمعُ ما يُلْقِي الملوكُ - الوزراءُ - السفراءْ
ورجالُ الحربِ والتجَّارُ من كلِّ الأقاليمِ عن الأرض
التي كانتْ رخاماً ليِّناً تنقشُه المهرةُ بالرقْصِ
وعن أزمنةٍ طالتْ بها الأدْهُرُ
كانتْ خطوتي ميزانَ إيقاعاتها، شالُ العمامهْ
ظَلَّلَ الأصقاعَ واسْتَنْسَجَ من رَفَّتِهِ الأعلامَ فوق
المدن الكبرى وأخرىٰ بين جوف البحر والمحرابِ،
أهْدابُ الغمامهْ
ريشةُ الله على أروقةِ المرمرِ، سرجٌ من سُرىٰ الليلِ،
جوادٌ باذِخُ الزينةِ بالكوفيِّ والنسخيِّ يعْدو في
براح الكتب المخطوطةِ،
الآفاقُ والأرضُ على ميزانِ ما كنتُ به

أَوصَيْتُ من عَقْدِ نكاحاتِ شعوبٍ
وانصهاراتِ دمٍ في أوَّلِ البهجةِ بالإنسانِ،
كانتْ عُقْدةُ الأمْشاجِ تَسْتَفْتِحُ معيارَ الأقانيمِ،
أَمَا كنتُ؟!
وهل هذا الثرى في هَدْأَةِ الوديانِ إلاَّ
خطوتي في الموت أحقاباً،

وهذي الريحُ في أشرعةِ البحرِ سوى نفْخةِ أرْغولي،
وهذا الصَّخرُ إلاَّ أعظُمي؟!
ما أجملَ الأرضَ
وأبهى دِمَنَ الروحِ
وجَلَّتْ هذه اللحظةُ في
مُشْتَبَكِ الأعرافِ بالبشرى!!

لكمْ مجدُ الإغاراتِ وأسلابُ التواريخِ..
وَوَحْدي.. ليس لي درعٌ ولا مجدٌ
سوى عُرْيِ الوليمهْ

في عَراءِ الرَّملِ والفُصْحىٰ.. وهل غيرُ العراءْ
منبراً في ضَحْوَةِ العيد وأسماطَ بلاغٍ وثريدْ!!
أضْرموا النَّارَ - إذنْ - في رَكْوة البهجة..

وَلْيَعْلُ الدُّخانْ
ربَّما يأوي إلى خيمتيَ الطَّيرُ ووحشُ الصحراءْ

ربَّما يلتفتُ السابلةُ الموتى إلى موعدنا المضروبِ في يومِ القيامهْ

وأنا آخرُ حرَّاس الرِّباطاتِ على بابِ النشيدْ
أَوَلَسْتُ الآنَ؟!

فَلْتَشْتَعِلِ النِّيرانُ في مجْمرةِ الدَّمعِ - إذنْ - ولْيتكلَّمْ
صاحبُ الحكمةِ أو فصلِ الخطابْ..

- ٥ -

عندَ بابِ الخان أَرْخَيْتُ اللِّجامْ
وتركتُ السَّرْجَ، ألقيتُ عن الوجهِ اللِّثامْ
قلتُ: فَلْيَعْرِفْني.. ولأمشِ.. لا سيفٌ ولا
رمحٌ ولا دُرَّاعةٌ من وَبَرِ النوقِ،
وقلتُ: اخْطُبْ إلى أيِّ مليكٍ بِنْتَهُ
تَسْتَكْمِلِ الأرْبَعَ زيجاتٍ،
وسُقْتُ الأهلَ من خلفي قبيلاً فقبيلا
ثمَّ قَدَّمْتُهمو، فاسْتَعْرَضَ الأعمامُ والأخوالُ
ما شاءُوا من المحْتِدِ والمِلْكِ

-: فَمَنْ تَطْلُبُ؟
-: صُغْراهُنَّ..
-: فلْتَبْقَ زماناً بيننا..
فانصرفَ الأهلُ..
وفي اللَّيلِ أحاطَ الجُنْدُ والأصْهارُ بي،
شدّوا إلى أعمدةِ القصْرِ وِثاقي
ثمَّ دارَ الطقسُ من حولي، فهمْ أقنعةٌ تسقطُ،
في كلِّ يدٍ كأسٌ من الرُّبِّ وطاسٌ مُلِئَتْ من عسلِ المَوْسِمِ،
طافوا، ثمَّ صَبّوا ما بأيديهم على رأسي وأعضائي،
وخَلَّوْا بين عينيَّ وبين الشمس حتَّى لا أنامْ
فَتَدَاعَتْ حشراتُ الأرض:
نملُ مُرسَلُ الزَّحْفِ قبيلاً فقبيلا،
العظاءاتُ، طرودُ النحلِ، جرذانٌ، وطيرٌ لا حِمَمْ،
أبناءُ آوىٰ، البومُ، دودٌ، عُمْيُ حيّاتٍ، هَوامْ
أخرجتْ أثقالَها الأرضُ فهلْ من صرخةٍ تُسْمَعُ!!
أبصرتُ العظامْ
تتعرّىٰ من فتوقِ اللَّحمِ، تبيضُّ قليلاً، ثمَّ تَجْلُوها

يَـدُ الشمسِ فيصْفـو عـاجُهـا، فهي رخـامٌ من رخامْ..

- ٦ -

أنتَ لم تَسْتَكْمِلِ البيعةَ في أوَّلِ مسْراكَ،

وكنتَ اسْتَعْجَلَتْكَ الـرِّيحُ والغيمـةُ بـالبشرى فلم تُحْكِمْ

مجازَ الصولجانْ

كم كتاباً من متونِ الرَّملِ لم تقرأْ!!

فلم تَسْتَأْلِفِ المزْحَفَ والمكْمنَ والمجْثَمَ والمرْبِضَ،

لم تعقِدْ مواثيقَ المؤاخاةِ مع الشرْخِ أو الشدْخِ

أو الشقِّ أو الهوّةِ،

لم تقرأْ كتابَ الكونِ إلاَّ لمحةً؟!

فاقْعُدْ، أَقِمْ بيتَك في خطوتك الأولى ولاعِبْ في فضاءِ الخيمةِ البئرَ وما يَرْجُفُ والصِّلَّ وما يزحَفُ والجُرْذَ وما يكْمُنُ والطيرَ وما يجْثُمُ والوحشَ وما يربِضُ واقرأْ لغةَ الجنِّ وما يُبْلِسُ والإنسِ وما يَأْنَسُ أو يُؤْنِسُ، واقرأْ ما به تنتفضُ الأرضُ

ويعلو الفيضانْ..

أنتَ في بيتكَ.. فاقعدْ مقْعدَ الرؤيةِ والرؤيا،

أَزِحْ في ركنِك المعْتادِ شِقَّ الوبر الفوَّاحِ بالْخُثْرَةِ والبوْلِ ورَوْثِ الشّاءِ والنوقِ،

اتّكئ، هذي زِقاقُ الماءِ، خبزٌ من شعيرِ القَفْرِ، من تحتك يمتدُّ ثِفالٌ لرحىٰ الصَّوَّانِ أو للدرعِ،

حَدِّقْ واكتملْ في الصَّمْتِ، رَتِّقْ من سفينِ الذاكرهْ

بصريح الحسِّ والرؤيةِ - ما هَرَّأَتِ الأجيالُ،

قد كان ويبقى الفيضُ من نبعِ المكانْ

هكذا دِرْعُك مَسْرُودُ رميمٍ أممٍ جاءتْ وراحتْ،

فأقمْ بيتَك في خطوتِك الأولى

وأَعْلِنْ زينةَ العيدِ على ضحوةِ هذا المهرجانْ..

- ٧ -

هكذا - يا أيُّها السادةُ - لا أملكُ من

ذاكرةِ الحربِ سوى شَعْشَعَةِ الأنْواءِ:

شمسٌ ترسم الوردةَ في صلصالِها الكونيِّ

أقواساً وكرمٌ من عناقيدِ النجومْ

لْألأتْ أسماءَ موتي في التواريخِ،

أضاءتْ سككَ الأوْبةِ من كَدْحِ التجاراتِ

وإبداعِ الدمِ الراصدِ للبحرِ وأضواءِ المناراتِ

وخاناتِ التخومْ

قُلتَ فلأَعْصِرْ لكم من عنبِ الذكرى..

فهل أملكُ إلاَّ أَدَمَ الرَّقِّ وسجْعَ الأقدمينْ!!

هل سوى جلدِ الذبيحهْ

- بعد أن ينصرفَ الجزَّارُ - زِقّاً وخرائطْ للسماوات وللأرض!!

إذنْ.. فَلْتَكْتَمِلْ بعد تمامِ الذبحِ..

لا أوْسَعَ من جلدِ الذبيحهْ

لا ولا أبْلغَ من صمتِ الذبيحْ..

القاهرة - فاس - رملة الأنجب

١٩٩٢/٣/١١